الابتهـال والمباهلة

نصارى نجران ، ونجران إقليم باليمن ، مثل قبط مصر ، ومثل سائر الأقطار والأقاليم التى حول الجزيرة العربية .

أقطار مظلمة بظلام الشرك والكفر ، وأطبق عليها الرهبان والأحبار ، والقسس والأساقفة وضربوا عليهم نطاقًا من حديد ، واستولوا على عقولهم ، واستنزفوا أموالهم ، وأقاموا بينهم وبين العقل ونور الإيمان سدودًا وحدودًا .

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(التوبة الآية ٣٤)

* * *

وكان لابد للنور الإلهى أن تمتد أشعته ، فتنير العقول ، وتبدد الأوهام ، وكان أن أرسل النبى كتبه إلى هذه الأقطار يدعوها إلى الله ، ويعرض عليهم الإسلام . ويرغبهم فيه .

وكان النبى طبيبًا معالجًا ، والطبيب يصف العلة ، ويقرر الدواءَ ، فإن شرح الله صدر المريض ، وتعاطى الدواءَ ، كتب الله له البرءَ والشفاءَ .

وإن أبى أن يتعاطى الدواءَ ، وركب رأسه ، واستحب أن يعيش عليلا ممروضًا ، كان من حق الطبيب أن يخيِّره بين الرضا والخنوع للطب والتطبيب وبين أن تشتد عليه العلة ، فيهلك ويموت .

وكان من حق الطبيب ، إذا هو خشى على الأصحاء المخالطين والمجاورين لهذا العليل العنيد ، أن تتسرب إليهم عدواه . وإذا هو خشى عليهم منه ، أن يتعمد الاختلاط بهم ، والاندساس فيهم وتحريضهم على أن يعودوا من صحتهم إلى مرضه ، وإذا رأى هذا المريض يثور فى الأصحاء ، ويعتدى عليهم ، ويهدد حياتهم ، كان من حق الطبيب أن يجبره على التداوى ، وأن يشهر عليه عصا التأديب ليعالج حمقه وسفاهته ويمرِّض فيه سوءَ رأيه ، ويطِّب جهالته وغباوته .

* * *

إنما مثل محمد ﷺ فى رسالته ، مثل الطبيب فى تطبيبه .

فقد بعث إلى الناس رسائل ، تفصح عن خطر الشرك والكفر ، وتوضح نور التوحيد والإيمان ، وتنشر بالرضا والهداية ، وتنذر بالعذاب والخسران .

فبعض الناس اهتدى وآمن ، وبعض الناس ركب رأس الشيطان ، وأمعن فى الكفران ، وحمل السلاح ونزل الميدان .

* * *

والنبى طبيب البشرية ، قيّم على هؤلاء الحمقى الخاسرين ، بتكليف من الله .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الممتحنة الآية ٢)

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾

(البقرة الآية ١٩٣)

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ (التوبة الآية ٣٦)

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال الآية ٦٠)

أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فإن شهدوا ، حقنوا دماءَهم ، وأنفسهم وأموالهم ، إلا بحق من حقوق الله .

* * *

ومن حق القيّم ، أن يكتب ويرسل ويدعو هؤلاء إلى الله .

وبعث إلى المقوقس ، عظيم القبط بمصر ، يخيّره بين ثلاث .

الإسلام وهو خير ، أو الجزية ، وهى مسالمة وخضوع وفترة تفكير لعلهم يسلمون ، أو الحرب ، وهى القسر ، وتعقيل الجاهلين ، وتأديب العاصين .

وآثر المقوقس ، أن يدفع الجزية ، ويقدم المال ، ويبعث بالهدايا ، وكانت هداياه عجيبة ،

فرسًا تركب ، وتقديم الفرس للراكب ، خضوع وتسليم ، وطبيبًا يداوى ، وفى تقديم الطبيب ، رجاءٌ للصحة والعافية وامتداد للأمل ، وفتاة مصرية قبطية جميلة ، وفى تقديمها تقديمٌ للخدمة ، وتسليم للعرض ، امتحانًا فى الاحتفاظ به وصيانته ، وقد يكون سببًا فى الارتباط به ومصاهرته .

والخيل العربية أصيلة ، وليس لها فى الدنيا نظير ، وعند العرب منها خير مما عند القبط بمصر ، وهم ركاب خيل من قبل أن يركب الناس .

والطبيب يعالج المرضى المعلولين ، ومحمد ﷺ طبيب النفس والجسد ، ودستور دينه ، لايدع الشعب يمرض ، وليس فى المسلمين مريض يعالج .

ونحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، فمن أين نمرض ؟ ويا طبيب الإسكندرية ، أحمل سلامنا إلى أهلك ، واشكرهم على إهدائك ، فمرضاكم أولى بك ، ولعلك تعود إلينا ، ومعك أهلك ، مسلمين .

وأنت أيتها الفتاة القبطية ، عزيزة على قومك ، وأنت حبل من حبال ودادهم ، ووصلة تربطنا بهم ، وإعزاز لهم ، واستمالة لميولهم ، والتصاهر بك ، تمهيد لطريقهم وتوريط لهم ، فأنت مقبولة لدينا ، كريمة علينا ، وبين يدينا وعينينا ، ولعل الله يسوق منك الخير والولد إلينا .

* * *

ونصارى نجران ، فى قبضة الرهبان والأساقفة ، والحبر يقبض على لجامهم بيده ، ويهمس ويوسوس ، ويقدر ويعبر ، والناس من حوله لايرون إلا مايرى .

وقد رأى كتاب محمد ﷺ ، وفيه التخيير بين الإسلام والجزية والقتال .

ورأى أن يرد على محمد ، بأن يرسل إليه وفدًا يجادله ويحاوره ، ويفحمه ويغلبه ، فعنده المجادلون المحاورون .

وجاء وفد نصارى نجران ، ويلبسون مسوح الرهبان ، ويتختمون بالذهب الرنان ، ويتوشحون بالصلبان ، ودخلوا على محمد ، وألقوا الهدايا بين يديه .

والناس من قديم يرون أن الهدايا ، تستميل القلوب ، وتهدئ الثائر ، وتشترى الذمم ، وتقلب الحق زورًا وبهتانًا ، وأن الهدايا لها فعلها فى النفوس فكم من حق غطت عليه الهدية فضاع ، وكم من باطل دهنته الهدية ، فلمع وسطع ، وأخفى بَريقُه الحقوق .

والهدايا تتوه فى الرشوة ، ويختلط الحق بينهما ، ونَدَرَ فى الناس مَن يفرق بين هذه وتلك .

وبلقيس اليمنية ، ملكة سبأ ، وهى مجاورة لنجران ، ظنت أنها بهداياها ستشترى ذمة النبى سليمان ، ففهم مغزاها ، وقال

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل الآية ٣٦)

وقد قبل محمد ﷺ ، هدايا المقوقس عظيم القبط بمصر ، وهدايا قسيس نجران ، فقبول الهدية ، تكريم للمهدى ، وإيناس له ، وقبول لوداده ، ورفع للتكليف بين المتهادين ، وطمأنة للوافد ، ومفاتيح للقلوب المغلقة ، ومسح لصدأ الجفوة .

ثم عرض محمد ﷺ عليهم الإسلام والتوحيد ، وحدثهم أن إنجيل عيسى ، ينادى بأن لا إله إلا الله ، ولا ولد لله ، وأنه

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص الآيتان ٣/٤)

فلا عزير ابنه ، ولا المسيح ابنه .

* * *

فها هو محمد ﷺ ، قد اقتحم عليهم ميدانهم ، فتكلم فى عيسى نبيهم قبل أن يكلموه ، وفتح لهم باب الحديث فى عيسى ، وجرهم إلى الجدال والمحاورة .

فسألوه : وماذا ترى فى عيسى نبينا ، وما حكمك عليه ، وما رأى دينك فيه ؟

فأنزل الله عليه من القرآن :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(آل عمران الآيتان ٥٩/٦٠)

إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن . فيكون . الحقُّ من ربك فلا تكونن من الممترين .

فسألوه : أليس عيسى من روح الله ؟ فيكون بذلك ابن الله ، ويكون الله أباه .

وحاجوه ، وحاوروه ، وداوروه ، وأكثروا جداله ، وأصروا أن عيسى ابن الله .

وأفرغ جهده فى إقناعهم ، وطرق أسماعهم ، ودحض افترائهم ، فلما رأى منهم ، انغلاق صدورهم ، وجمود قرائحهم وتنطعهم فى مكابرتهم .

لجأ إلى الله ليحكم بينه وبينهم ، فالله ذاته موضع الخلاف بين حقه وضلالهم .

فمن يفصل بين الحق والضلال إلا الله ؟

* * *

تعالوا يانصارى نجران ، ندعو أبناءَنا وأبناءَكم ، ونساءَنا ونساءَكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، نجتمع فى ميدان ، ونضرع إلى الله بِنَفس طاهر ، وقلب مخلص ، نسأله ونبتهل إليه ، أن يحق الحق ، ويبطل الباطل ، وأن ينزل لعنته ، ويطرد من رحمته ، مَنْ كان منا أو منكم ، كذابًا مفتريًا ، ضالاً مضلّلاً .

فإن كان دينكم الحق ، وديننا الباطل ، لعننا الله ، وخسف بنا ، ومسخنا قردة وخنازير .

وإن كان ديننا الحق ، ودينكم الباطل ، لعنكم الله ، وخسف بكم ، ومسخكم قردة وخنازير .

* * *

إذن هى المباهلة والملاعنة ، والابتهال إلى الله ، أن ينزل غضبه ولعنته على من يكذب على الله .

وإذ هى مجابهة الله ، ليفصل بين أنبيائه !

وإذن فهو الموت أو الحياة !

* * *

وبُهت نصارى نجران ، وأسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم بين مِطرقة الايمان وسندان الشرك والكفران ، وأن المطرقة بيد الله . وليست فى يد محمد ﷺ . ولا فى يد عيسى .

* * *

فاستمهلوا محمدًا ﷺ إلى غده . حتى يُديروا الرأى ، ويفصلوا فى الأمر . فإما شجاعة وجراءَة . وصراحة فى الحق . وإما الْتياث وانغماس فى أوحال الباطل ! .

نور وظلام ، وإيمَانٌ وكفران ، وجنة ونار ، وتصديق وتكذيب لما قرأنا فى الإنجيل ، قول المسيح :

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

(الصف الآية ٦)

وهذا هو أحمد محمد ، يدعونا وينذرنا ، ويتوعدنا غضب الله .

* * *

وعاد النصارى يقولون : لا نستطيع يا محمد ﷺ مجابهة الله ، فأعفنا ، واعفُ عنا ولك علينا الجزية ، ندفعها خاضعين ، ألفيْ حلة حمراءَ ، وثلاثين درعًا من حديد . ونعيش إلى جوارك ، وفى ذمتك ، نرعى لك حقك ، وتُبقى علينا ديننا ، حتى تستنير بصائرنا ، ويكشف الله عن أبصارها ، ويهدينا سواءَ السبيل .

تم بحمد الله